بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة

قصائد الشعراء في تأبين سعد

للدكتور زكي مبارك

— ١ —

في مثل هذه الأيام من سنة ١٩٢٧ فجُعت مصر بوفاة الزعيم سعد زغلول، والتفتت الأمم العربية إلى هذه الفجيعة العامية، فنُظِمت القصائد الجياد في الحزن لوفاة ذلك الزعيم العظيم، نظمها شعراء فضلاء من الحجاز واليمن والمغرب والشام والعراق؛ وكان من أجود المراثي التي صدرت عن شعراء الأمم الشقيقة قول الأستاذ بشارة الخوري شاعر لبنان:

قالوا دهتْ مصرَ دهياءُ فقلتُ لهم
هل غِيضَ النيل؟ أم هل زُلزل الحرم؟
قالوا أشدُّ وأدهى، قلتُ ويحكمُ
إذن فقد مات سعدٌ وانطوى العلمُ
لِمْ لا تقولون إن العُرْبَ قاطبةً
تيتَّموا، كان زغلولٌ أبا لهمُ

وما نريد في هذه الدراسات الوجيزة أن نتحدث عما تفضل به شعراء الأمم العربية من المواساة الكريمة لوادي النيل، فذلك يوجب أن نعتمد لأبحاث طوال لا يسمح بها الزمن الضنين، فلم يبق إلا أن نتحدث عن القصائد التي نظمها أكابر شعراء مصر من أمثال: شوقي وحافظ والعقاد والجارم ومطران

مهرجان التأبين

أقيمت تلك الحفلة التاريخية في اليوم السابع من أكتوبر سنة ١٩٢٧ بعد انقضاء الأربعين لوفاة سعد زغلول، وكان الخطباء والشعراء على هذا الترتيب: مصطفى النحاس، عبد الخالق ثروت، محمد محمود، حسن نبيه المصري، حافظ ابراهيم، عبد الحميد سعيد، فكرية حسني، مكرم عبيد، أحمد شوقي، نسيم أسيمة، عباس محمود العقاد، حسين رشدي، يحيى الدين بركات

جو الحفلة

ومن هذه الأسماء نلاحظ أن جو الحفلة روعيت فيه الصبغة القومية والعربية؛ فقد تكلم محمد محمود عن حزب الأحرار الدستوريين، وتكلم محمد سعيد عن الحزب الوطني، وتكلمت فكرية حسني عن السيدات، وتكلم نسيم أسيمة عن سورية.

دموع ثروت

وكانت الحوادث قضت بأن يصفو ما بين سعد وثروت بعد طول الخصام والعداء، فلما وقف عبد الخالق ثروت لرثاء سعد زغلول، نظر إلى صورة الصديق الفقيد، فتقلبه الحزن وأجهش بالبكاء ... فترك المنبر، وقدم خطبته للأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي، فأتمها بالنيابة عن ذلك الخطيب المحزون

برقية نسيم

وفي تلك الحفلة أُلقيت برقية نسيم باشا، رئيس الديوان الملكي حينذاك، وفيها يقول:

« أشاطركم الأسى وأقاسمكم الشعور في تأبين الفقيد العظيم، أسبغ الله عليه ثوب الرحمة والرضوان، وإني أستوهبكم عذراً: إذ ليس ميسوراً لي حضور الحفلة اليوم »

وإنما نصصت على هذه البرقية لأن جريدة « البلاغ » أشارت إلى أنها لفتت أنظار الحاضرين، ولبيان هذه الإشارة شرح يطول

إن تاريخنا السياسي الحديث فيه أسرار وغرائب وأعاجيب، فأين الباحث الذي يميط اللثام عن البيقرية المصرية في ميادين الجدل السياسي؟

إن طلبة الدكتوراه بكلية الآداب يشغلون أنفسهم بإعداد الرسائل عن مشكلات العصور الخوالي في الأدب والسياسة والاجتماع، فمتى يتجهون إلى درس المشكلات الأدبية والسياسية والاجتماعية في العصر الحديث؟

سارعوا إلى درس هذا العصر قبل أن تضيع الوثائق، وقبل أن يموت الشهود، فقد يصعُب عليكم درسه يوم يصبح ظنوناً في ظنون!

قصيدة شوقي

نشرت في صدر « الأهرام » مع تحميد نظمه من قلم المرحوم صادق عنبر، وهو يقول في ذلك التمهيد:

« هذه هي القصيدة التي تنزلت من سماء البيقرية وحياً يسيل

نور الحكمة على أبياته ، ويتجلى الإيجاز في حالية آياته ، وتتصرف فيه مواضع سجداته ... أبدعها شاعر العصر « شوقي » في تأبين زعيم الشرق « سعد » وأودعها صورتين متقابلتين إحداهما صورة الحياة التي تعجز الموت ، والأخرى صورة الموت الذي يعجز الحياة ، منتزعاً من الحياة والموت معاً أصدق ما فيهما من اللمحات ، وأجل ما فيهما من العبر والمثلات . وإنك لتجد فيما بين ذلك روحاً من الحكمة الكهلة ترف على كل بيت من أبياتها كما تدرج نسمة من الصبا في الخميلة النضرة الفيحاء . وقد تمثلت في هذا الشعر عاطفة شوقي الشبوبية وعظمة سعد الخالدة . وناهيك من خالدين تلاقيا ، وسحرين تظاهرا »

عبر القصيدة

لم أكن في مصر يوم مات سعد ، وإنما كنت في باريس ، فلا أعرف أين كان شوقي يوم مات سعد ، فهل كان بمصر ؟ في القصيدة ما يشهد بذلك ، كأن يقول :

قلتُ والنعش بسعدٍ ماثلٌ ... فيه آمالُ بلادٍ وُمناها

وفيها مع ذلك أبيات تشهد بأنه كان يصطاف في البلاد السورية ، كأن يقول :

سائلوا « زحلة » عن أعراسها ... هل مشى الناعي عليها فنحاها
عطل المصطافَ من سُمّاره ... وجلا عن ضفة الوادي دُماها
فتّح الأبوابَ لبلاً دَيرُها ... وإلى الناقوس قامت بيعتاها
صدّع البرقُ الدُّجا تنشرُه ... أرض سوريّا وتطويه سماها
يحمل الأنباء تسري هوهنا ... كموادي الشكل في حرّ سراها
عرض الشك لها فاضطربت ... نطق الآذان همساً والشفاها
قلت يا قوم اجمعوا أحلامكم ... كلُّ نفس في وريديْها رداها

فهذه الأبيات صريحة في أن الشاعر كان في سورية حين مات سعد ؛ فكيف جاز له أن يخاطب النعش ولم يكن من المشيّعين ؟

إنما سمع ذلك ليتسق له هذا الحوار الجميل :

يا عدوّ القيد لم يلمح له ... شبحاً في خطةٍ إلا أباها
لا يَعُقْ نَوعُك بالقيد الذي ... حزّ في سوق الأوالي وبَراها
يا رفاتاً مثل ريحان الضحى ... كلتْ عَدْنٌ به هام رباها
وبشايا هيكلٍ من كرمٍ ... وحياة أترع الأرض حيَاها
ودّعَ العدلُ بها أعلامَهُ ... وبكت أنظمة الشورى سواها
حَضنَتْ نعشَك والتفت به ... راية كنت من الذل فداها
ضمّت الصدر الذي قد ضمها ... وتلقّى السهم عنها فوقاها
عجَبي منها ومن قائدها ... كيف يحمي الأعزل الشيخ حماها

وهنا يظهر روح القصيدة ، فالشاعر يتحدث عن القيد وعدو القيد ، ويذكر الراية التي احتضنت نعش سعد ، بعبارة لطيفة تعد من أدق العبارات ، إذ جعل الراية تحمي نار الفجيعة ، وتشعر بفقد القائد الذي كان يحمي حماها ، وإن جردته الأقدار من السلاح

عيوب القصيدة

وفي هذه القصيدة أبيات روائع ، منها قوله في فجيعة مصر بدفن سعد :

ما دَرَت مصر بدفن صبّحت ... أم على البعث أفاقت من كراها
صرخت تحسبها بنت الثرى ... طلبت من مخلب الموت أباها

وقوله في جزع مصر لفقد الخطيب الذي أسكرها بسحر بيانه حيناً من الزمان :

طافت الكأس بساقي أمةٍ ... من رحيق الوطنيات سقاها
عطلّت آذانُها من وَقرٍ ... ساحر رنّ مليًّا فشجاها
أرغنٌ هام به وجدانها ... وأذانٌ عشقتْهُ أذناها
كلّ يومٍ خطبةٌ روحيةٌ ... كالمزامير وأنغام لُتاها
دلّهتْ مصراً ولو أن بها ... فلوات دلّهت وحش فلاها

وقوله في مصاير الأحياء :

زورقٌ في الدمع يطفو أبداً ... عرف الضفة إلا ما تلاها
تهلع الثكلى على آثاره ... فإذا خفّ بها يوماً شفاها

وقوله في فضل سعد على الثورة وجعلها خير ما ترك من الذرية :

ولدَ الثورة سعدٌ حُرةً ... يحيائي ماجدٌ حُرٌّ نماها
ما تمنّى غيرها نسلاً ومَن ... يلد الزهراء يزهد في سواها
رَقدَ الثائرُ إلا ثورةً ... في سبيل الحق لم تخمد جذاها
قد تولاها صبياً فكوتْ ... راحتَيْه وفتياً فرماها
أعلمتم بعد موسى من يدٍ ... قذفت في وجه فرعون عصاها
وطئتْ ناديَهُ صارخةً ... شاه وجهُ الرق يا قوم وشاها

وقوله في أخلاق سعد :

أين من عينيّ نفسٌ حرةٌ كنت بالأمس بعينيّ أراها
روعة الناذي إذا جدّت فإن نزحت لم يذهب المزح بهاها
يظفر النذر بأقصى سخطها وينال الود غليات رضاها
ولها صبرٌ على حسّادها يشبه الصفح وحلمٌ عن عداها
لست أنسى صفحة ضاحكة تأخذ النفس وتجرى في هواها
وحديثاً كروايات الهوى جدّ للصبّ حنينٌ فرواها
وقناة صَعْدَةٌ لو وُهبتْ للسماك الأعزل اختال وتاها

تلك عيون هذه الشوقية ، وما زاد فهو معان يكررها شوقي في أكثر مراثيه ، وإن كانت تجل عن الابتذال

قصيدة حافظ

ابتدأ حافظ قصيدته بما ألف الشعراء من الحديث عن تأثر الوجود لفقد العظماء ، فسأل الليل : هل شهد المصاب ورأى كيف ينصبّ في النفوس ؟ ثم دعاه إلى تبليغ المشرقين غياب الرئيس ، مع نعيه للنيّرات لتلبس عليه ثوب الحداد ؛ ثم توجع لغياب سعد عن الحفل فقال :

أين سعدٌ فذاك أول حفل غاب عن صدره وعاف الخطابا
لم يعوّد جنودَهُ يوم خطب أن يناديَ فلا يردّ الجوابا
علّ أمراً قد عاقهُ ، علّ سقما قد عراه ، لقد أطال الغيابا
أيّ جنود الرئيس نادوا جهاراً فإذا لم يُجب فشقّوا الثيابا

ثم وازن بين بلهة فلسطين بالزلزال وبلية مصر بموت سعد ، فقال :

قل لمن بات في فلسطين يبكي إنّ زلزالنا أجلّ مصابا
قد دُهيتم في دوركم ودُهينا في نفوس أبين إلا احتسابا
فقدتم على الحوادث حِفناً وفقدنا المهنّد القرضابا
سلّهُ ربُّهُ زماناً فأبلى ثم ناداه ربهُ فأجابا
قدرٌ شاء أن يزلزل مصراً فتنالى فزلزل الألبابا

وجعل حمل النعش على الدافع دليلاً على أنه أضخم من أن تحمله الرقاب :

خرجتْ أمةٌ تشيّع نعشاً قد حوَى أمة وبحراً عُبابا
حملوه على المدافع لما أعجزَ الهامَ حمله والرقابا

واتخذ تعزية « التيمس » شاهداً على عظمة سعد فقال :

ساقت التيمس العزاء إلينا وتوّجت في مدحك الإسهابا
لم يَنُح جازعٌ عليك كما نا حتّ ولا أطنب المحبُّ وحابَى

واعترافُ « الغامز » بمجدٍ متى سُمّ لما نال فينا وأصابا

وعُمْدة هذه القصيدة هي الأبيات التي ينص فيها حافظ إبراهيم على أن روح الثورة لن يموت بموت سعد ، وأن الأمة لن تُصَدّ عن الغاية بوعد أو وعيد :

ليت سعداً أقام حتى يرانا كيف نُملي على الأساس الكتابا
قد كشفنا بهَدْيه كل خافٍ وحسبنا لكل شيء حسابا
حُجَجُ المبطلين تمضي سراعاً مثل ما تطلع الكؤوس الحُبابا
حين قال « انتهيت » قلنا بدأنا نحمل العبء وحدنا والصعابا
فاحجبوا الشمس واحبسوا الروح عنا وامنعونا طعامنا والشرابا
واستشقّوا يقيننا رغم ما نلـ ـقاه هل تلحقون فيه ارتيابا
قد ملكتم فمَ السبيل علينا وفتحتمْ لكل شوهاء بابا
وأتيتم بالحائمات تراءى تحمل الموت جائماً والخرابا
وملأتم جوانب النيل وعداً ووعيداً ورحمةً وعذابا
هل ظفرتم منا بقلبٍ أبيّ أو رأيتم منا إليكم مَتابا
لا تقولوا « خلا البرين » ففيه ألف ليث إذا البرين أهابا
فاجمعوا كيدكم وروموا رِحابهُ إن عند البرين أسداً غضابا

فهذه الأبيات هي خير ما في قصيدة حافظ ، وقد خلت من معانيها قصيدة شوقي ، وكان حافظ كثير الالتفات إلى المعاني التي ألف الزأر بها قبل عهد الاستقلال

ثم تحدث عن أخلاق سعد فقال :

تقتُل الدسّ بالصراحة قتلاً وتُسقي منافق القوم صابا
وترى الصدق والصراحة ديناً لا يراه المخالفون صوابا
تشتق الجوّ صافيَ اللون صحواً والمضلّون يشتقون الضبابا
أنت أوردتنا من الماء عذباً وأراهم قد أوردونا السرابا

وعطف على أيامه مع سعد في « بساتين بركات » فقال :

نمْ هنيئاً فقد سهرت طويلاً وسئمت المقام والأوصابا
كم شكوتَ السهاد لي يوم كنا في « البساتين » نستعيد الشبابا
نهب اللهو غافلين وكنا نحسب الدهر قد أناب وتابا
فإذا الرزء كان منا بمرأى وإذا حائم الردى كان غابا

أما بعد فهذه ملامح من قصيدة شوقي وقصيدة حافظ في تأبين سعد ، وسنتكلم في المقال المقبل عن قصائد العقاد والجارم ومطران والله ولي التوفيق

زكي مبارك